

الفصل الرابع

شعر الرثاء

- 1 - قصيدة الشاعر «سيدي محمد بن حامد بن محمد بن إبراهيم»، يرثي بها «حما النحوي».
- 2 - قصيدتان للعالم والأديب «محمد بن محمود الأرواني» يرثي بالأولى بعض إخوانه. وبالثانية يرثيه صديقه «الشيخ عيسى».
- 3 - قصيدة الفقيه والشاعر «عالي التنبكتي» يرثي بها «يحيى الونكري».

obeikandi.com

الثناء: لون من ألوان الشعر الصحراوي

شاعر الصحراء دائما يتفاعل بأحاسيسه ومشاعره مع الواقع المحيط به، فالثناء لون من ألوان الشعر عبر به الشعراء عن عواطفهم، فشاعر الصحراء مرهف الإحساس رغم أنه يعيش في بيئة تنعت بالقسوة.

وهذه القصيدة التي بين أيدينا للشاعر سيدي عالي التنبكتي يرثي فيها صديقه يحيى الونكري الذي فارقه، وكأنه يقول بأن الموت سرق أعلى صديق، وهو يخاطب الحاضرين ويعظهم في نفس الوقت بأن الدنيا دار الفناء والآخرة دار البقاء، وأن الذي يسير في الدنيا دون أن يلتفت إلى الآخرة فهو من الذين طمس الله على قلوبهم. ويرثي صديقه الونكري ويعدد شمائله وعلمه الذي نفع به العباد، ويخاطبه بعبارة صريحة بأن الأنام كلهم يشهدون لك بالتقوى والعلم. ومن شدة لوعته عليه يقول له حزت الشهادة، وكنت من المرضي عنهم لأن شيخهم التجاني راضٍ عنه. ومن هنا ندرك أن الشاعر والمراثي من أصحاب الطريقة التجانية المنتشرة في السودان الغربي، وهي تأتي بعد الطريقة القادرية.

ويختم حديثه بالصلاة على رسول الله ﷺ.

فالفقيه والمؤدب والعالم والمدرس يعتبرون في السودان الغربي وفي غيره من المواقع مراكز إشعاع علمي يزبحون بعلمهم دياجير الجهل الذي ينعت بالظلام، وفي مدارسهم المبنية بأعواد القصب أو خيام الشعر أو تحت شجر الطلح المنتشر في صحراء السودان الغربي أو في مساجدهم المبنية بالطين يدرسون اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه، وعندما يتوفى منهم أحد يترك فراغاً واضحاً، حيث يعتبر موته خسارة لهم. وتتحرك مشاعر الشاعر لهذا الحدث، ويهرع أصدقاء العالم وتلاميذه يرثونه بقصائد تعبر عما يخالجهم من آلام وأحزان لفقدانهم علماً من أعلام

المنطقة. وهذا نموذج من قصيدة للشاعر سيدي محمد بن حامد بن محمد بن إبراهيم يرثي بها شيخه حما النحوي.

وفي هذه القصيدة يذكر شمائل شيخه من علم وأدب وعدل وبشاشة الوجه وحسن المعاملة، ويطلب من الله أن يسكنه فسيح جناته بما أسداه للعلم وأهله من خدمات جليلة يذكرها الذاكرون من بعده.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو ابن صالح يدعو له أو علم ينتفع به».

بكت عيني بدمع من صديد	على متواضع ورع عفيف
يلاقي بالبشاشة من أتاه	وفعل ملاطف ندب شريف
ويقبل إن به ضيف ألمّ	بخد ساطع حسن طريف
أرقت لحزن مهلكه بليل	بعيد الصبح في أسف كثيف
ولكن كيف يبقى بين خلق	قليل الخير مع دهر عنيف
أيا من قد قضى بالعدل فيه	أدم سكناه في ظل وريف
ونق ثيابه برضاً وعفو	ومحو الوزر مع رفق لطيف
ونور قبره بشعاع نور	بدا من نور ذي الشرف المنيف

وهذا نموذج آخر من الرثاء للعالم محمد بن محمود بن الشيخ الأرواني يرثي به بعض إخوانه.

نبذة عن حياة الشيخ محمد محمود الأرواني:

عالم وأديب من علماء تنبكت، ولد عام 1911 بمنطقة أزواد شمال تنبكت، وكان ذا شخصية وهيبة. تربي تربية إسلامية، ودرس على علماء عصره، وظهر نبوغه الفكري. ولي القضاء في تنبكت، وهو منصب رفيع لا يتولاه إلا من كان متمكناً من العلم وحسن التدبير، زار مصر في عام 1954م وقابل فقيه العروبة وإفريقيا الرئيس جمال عبد الناصر، وكتبت عنه جريدة الأهرام مقالات. ثم زار

الجمهورية التونسية في نفس السنة وكتبت عنه الصحف التونسية مقالات بعنوان: «ربع ساعة مع ضيف كريم»، ثم زار الأرض المقدسة والجزائر. والعلامة محمد محمود الأرواني له عدة مؤلفات جلييلة في شتى فروع المعرفة.

تعرض للسجن من قبل مودى بوكيته رئيس جمهورية مالي السابق عام 1960، وأطلق سراحه موسى تراوري بعد انقلابه العسكري وولاه قضاء تنبكت، واستمر في هذا المنصب إلى أن توفي عام 1973 بمدينة تنبكت، تعرفت على ابنه عادل الأرواني عام 1985 عند زيارتي الأولى لمدينة تنبكت وزرته في بيته ونشأت بيننا صداقة، ولست في هذا الشاب الجدية والصرامة والعلم والخلق، فهو أديب مفوه من أدباء تنبكت بالرغم من حداثة سنه، وقد زارني في الجماهيرية وزرته عام 1987، فأنا أكن كل احترام وتقدير لمثل هؤلاء الشباب من أبناء قارتنا الإفريقية، ونأمل أن يحذو حذو والده في العلم فقط.

وشاعرنا الأرواني يرثي بعض إخوانه، ويذكر الحاضرين بأن الموت سنة الله في خلقه، وكل إنسان لا بد أن يرتشف من ذلك الكأس، وهنا شبه الموت بالكأس المملوء بالماء ونحوه، وكل واحد يرتشف من هذه الكأس سواء كان عبداً أو سيداً، فكأنه يستمد كلمات هذا البيت من البيت الذي يقول:

الموت كأس كل الناس ذائقه والقبر دار كل الناس ساكنه

ويظهر في هذه القصيدة القصيرة انتقاء في الكلمات، وروعة في الأسلوب، وبلاغة في التصوير، واستعارة وكناية. . فهي تنم على تضلع صاحب القصيدة من اللغة العربية وبلاغتها، فهو تصوير بليغ.

وختم قصيدته بأن الموت لا مفر منه، فحتى سيد الكائنات محمد بن عبد الله ﷺ انتقل إلى جوار ربه وهو خير البرية، فالموت لا يفرق بين البشر، ولكن شاعرنا الأرواني لم ينج من الكأس الذي رثا به بعض إخوانه، وبموته فقدت منطقة غرب إفريقيا علما من أعلامها في العلم. وقد رثاه عدد من علماء غرب إفريقيا.

ولا نورد إلا نموذجاً منها مخافة الإطالة على القارئ، فهذا الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى يرثي العلامة محمد محمود الأرواني بقصيدة تحتوي على خمسة عشر بيتاً؛ يصور فيها الشاعر أن الدائم هو وجه الله تعالى. أما البشر فإلى زوال طال الأمد أم قصر. ويتحسر شاعرنا على أن فقد العالم من الصعب تعويضه، وضرب مثلاً بالعلامة صاحبنا الذي قال عنه: إنه لم يترك من يوازيه في العلم، وعرفه بالخبر الراسخ قدمه في العلم، وأنه الذي يحل مشاكل المنطقة من فتاوى وغيرها. قال سيد محمد بن حامد بن محمد إبراهيم أبياتا يرثي بها مما النحوى شيخه:

قال محمد بن محمود بن الشيخ الأرواني في رثاء بعض إخوانه:

الموت حكم الله في الأجناس	لا بد للمخلوق من ذا الكاس
لم ينبج منه والد لا ولا	مولوده في الناس ليس بناس
وأحق بالمرء الكبير رجوعه	عن حبه طيب البقا لياس
فمالنا كلا إلى ذوق الفنا	ورحيلنا كلا إلى الأرماس
لكن فقد حفيد شيخي حامد	أشجاناه ضاقت بها أنفاسي
ولأجل أجر الصبر أصبر داعيا	أهلي لفضل الصبر صبر راس
لا تجزعوا إخواننا حاشاكم	انتم رؤوس الناس يوم الباس
أمحمد صبيرا لفقده محمد	فمحمد قد مات خير الناس
وصلاة ربي والسلام على النبي	هو سيد الكونين في الأجناس

* * *

العالم العلامة محمد محمود الأرواني كان قاضياً في تنبكت، توفي في سنة 1972م، فرثاه الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى بهذه القصيدة:

وليس يدوم إلا ذو الجلال
سينقل لا محالة للمآل
كبير عند ذي دين وبال
فإننا راجعون لذي الكمال
جاء الفوز فضلاً ذو النوال
وحل المشكلات بأرض مالي
سمي لا يجارى في المعالي
يعين من اعتراه بكل حال
من الدنيا ولو فوت اللآلى
يفوت بفوته علم الحلال
بداهية كأمثال الجبال
فأجر الصبر أفضل في المآل
وأسكنه الجنان بلا نكال
عليه إلهنا أمد الليالي
وتابعهم بإحسانٍ وتال

* * *

قصيدة الفقيه الشاعر سيدي عالي التنبكتي يرثى بها يحيى الونكري:

كلا وليس نعيمها لذي أمل
ينفك ساكنها من كثرة الزل
فجر الغداة إذا بالخطب والجلل
ني الكروب إلى أن غبت عن وهلي
أقول سبحان ربي الحي في الأزل
ووعده صادق من دونما خلل
إننا إلى الله راجعون بالوجل

ألا إن الدوام من المحال
وكل فتى وإن طال الزمان
ولكن فقد أهل العلم شيء
وهذا الحبر لم يترك نظيراً
وذاك محمد والمحمود سعياً
فمن ذا للقضاء وللفتاوي
له القدم المعلى في العلوم
وهتمه لهذا القطر كلا
فليس مصيبة فقد لشيء
ولكن المصيبة فقد شيخ
وياتكرور صبوا قد دهمنا
ويا أروان يا تنبكت صبوا
جاء الله بالرضوان فضلاً
بجاء شفيعنا المبعوث صلى
وآلٍ ثم أصحاب كرامٍ

لعل رحمته تعمنا وكذا الصـ
فليتنسب أديعاء الفضل كيف رأوا
وليفخر اليوم قوم بالسخاء ولا
لو عاش لم يطرق الأسماع ذكرهم
أجل فقد مات هذا الونكري أسفا
فكل نفس لعلياه حكمت وشكت
ولا غرابة في هذا فإن له
منها السخاء ومنها الحلم ثم تفي
عدد صنوف المروءات بأجمعها
يا لائما في موالاته الحبيب فلا
لو كنت تعلم ما يحويه من كرم
لكن من لازمي قبول معذرة
فاذهب فقد أثنت الأنام كلهم
حزت الشهادة ذات الجنب تشهد لي
يكفيك مرضاة شيخنا التجاني وذا
طوبى لكم حيث جاورتكم سميكم
فالله يغفر ذنبكم ويرحمكم
يا آل ونكري هذا الرزء رزأكم
عزيتكم يا إمام القوم بأب ومن
ثم الصلاة على محمد وعلى الصـ
والآل والصحب والزوجات كلهم

للات من ربنا تأتي على مهل
فقد تغيب عنهم صاحب النحل
خوف فيحیی عديم الند والمثل
ولو رأوا جوده ولو من الخجل
وأوحشت أرضنا في العلو والسفل
وكل عين بكت من سائر الملل
جمر الشمائل أشتاتا بلا حيل
صبر جميل تواضع بلا دغل (1)
ولا تخف لائما في ذا ولا تسل
تعدل فنانك في غياهب السبل
لما تأتي لكم عتبي أخا العذل
لأن أعذاركم أولى من الجدل
عليك إذ هم شهود الله والرسل
مع السقام الذي قاسيت والعلل
كاف لكل مريد صادق العمل
فتم فأنت عروس نام في الحجل
ويدخلنكم الجنان ذا الظلل
لكن غيركم قد غاض في الوحل
فصل الخصام له قدما وذاك جلي
ديق فاروقنا عثمان ثم علي
والتابعين منا وكل ولي



(1) الدغل: العيب في الشيء يفسده.

وقال أيضاً:

حلت رزيته في القلب والكبد
وطالب العلم أضحى ظاهر النكد
تفسير قرآنها بواضح السند
فروع مذهبه كل بذو الصد
رزيتها فابكيا من دونها أمد
طوع الفقيد غزير الدمع والسهد
من ذا لنا ولها بالنصح والمدد
بحر العلوم به من غير ما فند
باق ومجدكم باق مدى الأبد
وغاب من يفتدى بالمال والولد
وحيث صرنا كبارا كنت ذا أود
مما احتويت عليه جيد العهد
من بيننا باقيا في القطر والبلد
ولا على إذا ما قلت معتقدي
تحت الظلال ظلال عرشه الرغد
أقصى الجنان وعند رؤية الصمد
إن المدينة تنبكت لفي كمد
والناس ما بين ذي حزن وذو جلد

يا لهف نفسي من هذا المصاب لقد
يا للمدارس من يتم ومن وصب
إن العلوم لتبكيكم بأكملها
أصول مذهب مالك وعمدته
يا للخليل ويا نص الرسالة قد
وأصبح النحو والصرف اللذان هما
يا لهف حضرتنا ويا وظائفنا
يا شمس فضل زماننا المنير ويا
قد غبت عنا ولكن نور بهجتكم
قد غاب طاهرنا وغاب عارفنا
ربيتنا بصغار العلم ترشدنا
تواضعا منك لا أمرا تبينه
بالله فالله ما علمت مثلكم
وما شهدت بغير الحق في قسيمي
عسى الإله بفضل الله يجمعنا
في جنة الخلد دار المتقين وفي
صلى إله الورى ما قال قائلنا
على النبي المصطفى وآله الكرما

